بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة موجزة للعلامة تاج الدين محمد بن مكي الحموي

اسمه:

هو الشيخ العلامة الفقهية المتكلم تاج الدين محمد بن هبة الله بن مكي الحموي المولد، المصري الدار والوفاة، الشافعي الخطيب.

مولده:

ولد –رحمه الله- سنة ٥٤٦ هجري الموافق له ١١٥١ رومي بحماة.

صفاته:

قال تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية:" كان فقيهاً فرضياً نحوياً متكلماً أشعري العقيدة إماماً من أئمة المسلمين إليه مرجع أهل الديار المصرية في فتاويهم، وكان حسن الخط جيد الانتقاد رأيت كتاب البيان للعمراني بخطه وحواشيه أيضا بخطه في مواضع كثيرة ينبه عليها تدل على وفور علمه وكثرة اطلاعه، وكان يأخذ الكتاب بالثمن اليسير فلا يزال يخدمه حتى يصير من الأمهات انتهى ما وجدته ونقلته من خط الشيخ كمال الدين بن القليوبي".

دراسته:

تفقه رضي الله عنه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، وقد نقل السبكي في طبقاته أنه سمع الشيخ الحافظ زكي الدين عبد العظيم يقول: دخلت عليه يوماً- أي الشيخ تاج الدين بن مكي - وهو في سرب تحت الأرض لأجل شدة الحر وهو يشتغل، قال: فقلت له: في هذا المكان وعلى هذا الحال. فقال: إذا لم أشتغل بالعلم فماذا أصنع.

تدريسه:

قال السبكي في طبقاته:" وجدت بخط ابن القليوبي في كتابه العلم الظاهر كان الشيخ تاج الدين الحموي مدرسا بالمدرسة الصلاحية وخطيبا بالقاهرة".

شيوخه:

تلقى شيخنا عن العديد من المشايخ نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

١- الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد الأصبهاني.

٢- العلامة أبو محمد عبد الله بن بَرّي النحوي.

مؤلفاته:

لم نقف للشيخ رحمه الله إلا على بعض المؤلفات وهي:

١- حدائق الفصول وجواهر الأصول.

٢- روضة المرتاض ونزهة القَّاض، وهي أرجوزة في الفرائض.

٣- ٥٠ ديواناً خطباً.

وفاته:

توفي رحمه الله في ١٦ جمادى الآخرة سنة ٥٥٩ هجري الموافق له ٢ مارس ١٢٠٣ رومي بمصر.

ترجمة موجزة للسلطان المجاهد الناصر صلاح الدين الأيوبي

اسمه:

هو العالم الورع والفارس المجاهد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي بن مروان، أبو المظفر الأيوبي.

مولده:

ولد سنة ٥٣٢ هجري الموافق له ١١٣٧ رومي في قلعة "تكريت" وهي مدينة تقع على ضفاف دجلة جنوبي بغداد في العراق.

نشأته وحياته:

كان أبوه واليًا على المدينة ثم انتقل معه إلى الموصل واستقر فيها برعاية عماد الدين زنكي. كان طاهر القلب عفيف اللسان، يردّ الحقوق إلى أهلها ويمنع الرشوة ويعاقب عليها، لا يُحابي في الحق أحدًا، وكان رحمه الله سياسيًا بارعًا، وقائدًا فذًا، وفارسًا مقدامًا عمّ ذكره في الآفاق شرقًا وغربًا.

انتقل والده نجم الدين أيوب مع أهله إلى بعلبك بعد أن عيّنه عماد الدين واليًا عليها، ولكن لم يطل مقامهم في بعلبك حيث انتقلوا للعيش في دمشق، وقد تولّى صلاح الدين رئاسة شرطة دمشق في عهد نور الدين. وبعد وفاة الأتابك نور الدين بن عماد الدين زنكي عام خمسمائة وتسع وستين للهجرة استقلّ صلاح الدين بحكم مصر والشام وغيرها، ثم شمّر عن ساعده لتوحيد البلاد الإسلامية وجهز الجيوش لقتال الإفرنج وانتزاع ما بقي من أراضي الشام. كما جهز جيشًا لاسترداد اليمن وبعثه إليها وعلى رأسه أخوه توران شاه بن أيوب، وبعث حملة إلى غربي مصر بقيادة "قراقوش" فاستولى على برقة وطرابلس الغرب وتونس. وهكذا تم توحيد البلاد الإسلامية في جبهة واحدة تمتد من برقة وتونس غربًا إلى الفرات شرقًا، ومن الموصل وحلب شمالاً إلى النوبة واليمن جنوبًا، وبقي لدى صلاح الدين همّ كبير وهو تحرير الأقصى من العدو الجاثم في فلسطين.

النصر الكبير في حطين:

تقع قرية حطين غربي "طبرية"، وهي غنية بالمياه وفيرة المرعى في جزء منها، وقد دارت المعركة في المنطقة الممتدة بين "طبرية" شرقًا و"صفورية" غربًا، وهذا الجزء جاف وعرٌ قليل المياه إلا من الآبار والينابيع المحلية النادرة. ومع أن استعادة بيت المقدس وتخليص الأقصى من يد الإفرنج كان الهدف الذي يسعى إليه السلطان المجاهد بعد أن وحَّد الجبهة الإسلامية وأمّن الحدود، غير أنه لم يشأ أن يكون هو البادئ بالحرب لحنكة هو أرادها فانتظر حتى بدأ "أرناط" صاحب الكرك المشهور بالخيانة والغدر، فكانت القشة التي قصمت ظهر البعير والشرارة التي أشعلت نيران الحرب، وذلك أن "أرناط" اعتدى على قافلة كانت تمر بالكرك في طريقها من مصر إلى الشام، فنهبها وأسر وقتل من فيها، وقال للأسرى وهو يعذبهم: "فليأت محمدكم ليخلصكم"، فغضب صلاح الدين ونذر لئن مكّنه الله منه ليقتلنه بيده. ودعا صلاح الدين إلى النفير والتعبئة الشاملة للجهاد. وبعد أن كملت الاستعدادات وجاءت الجيوش الإسلامية متطوعة من شتى الممالك الإسلامية، غادر صلاح الدين دمشق إلى بصرى وبدأ بمهاجمة "الكرك" ثم استولى على "طبرية"، وعنّف صلاح الدين "أرناط" على فعلته الشنيعة مع قافلة المسلمين واستهزائه بمقام النبوة وعرض عليه الإسلام فأبى، فاستل صلاح الدين سيفه وقال له: "ها أنا أنتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم" فضربه تنفيذًا لوعده وبرًا بقسمه. وإثر ذلك انهارت الدولة المسماة "أورشليم"، وتمكن السلطان صلاح الدين من استرجاع جميع مدنها وقلاعها.

حبه للعلم الديني وتقواه:

يقول السبكي في طبقات الشافعية عن السلطان صلاح الدين إنه سمع الحديث من الحافظ أبي طاهر السلفي وأبي طاهر بن عوف والشيخ قطب الدين النيسابوري وعبد الله برّي النحوي وجماعة غيرهم.

وقد سلك صلاح الدين مسلك السلف الصالح في المحافظة على الدين والتمسك بالعقيدة الصافية النقية عقيدة أهل الحق. فقد أمر رضي الله عنه بتدريس العقيدة الإسلامية والتي فيها تنزيه الله عن المكان والحيز واللون وسواها من صفات المخلوقين في الكتاتيب والمدارس، وقد ألف العلامة محمد بن هبة الله المكي رسالة في العقيدة سماها "حدائق الفصول وجواهر الأصول" في علم الكلام على أصول أبي الحسن الأشعري رحمه الله، أهداها إلى السلطان صلاح الدين الذي أمر بتعليمها في المدارس للصبية الصغار فعُرفت بالعقيدة الصلاحية ومما يقوله فيها:

وصـــــانِعُ العـــــالَمِ لا يَحويـــــهِ قُطْـــــرٌ تعـــــالى اللهُ عـــــن تَشـــــبيهِ

قَـــــد كـــــانَ مَوجـــــودًا ولا مكانـــــا وحُكمُـــــهُ الآنَ علـــــى مَـــــا كانَـــــا

سُـــــبحانَهُ جَـــــلَّ عَـــــن المكـــــانِ وعَـــــزَّ عَـــــنْ تغيُّـــــرِ الزَّمـــــانِ

فقَـــــدْ غـــــلا وزادَ في الغُلـــــوّ مَـــــنْ خصَّـــــه بجهـــــةِ العُلُـــــوّ

ويقول عنه معاصروه: كان خاشع القلب غزير الدمعة إذا سمع القرءان خشع قلبه ودمعت عيناه، وكان كثير التعظيم لشعائر الإسلام.

مآثره:

ومن مآثره الحميدة أنه أبطل المكس (الضريبة) المأخوذ من الحجاج في البحر على طريق عَيْذاب في أيام مكثر بن عيسى وهو آخر أمراء مكة المعروفين بالهواشم.

وكان لم يؤدّ بعيذاب يُؤخذ منه بجدة وهو سبعة دنانير مصرية على كل إنسان. وكان سبب إبطاله أن الشيخ علوان الأسدي الحلبي حجّ، فلما وصل إلى جدة طولب بذلك فأبى أن يسلم لهم شيئًا وأراد الرجوع، فلاطفه الجند وبعثوا إلى صاحب مكة، وكان الشريف مُكثر بن عيسى، فأمر بإطلاقه ومسامحته. فلما طلع إلى مكة، اجتمع به واعتذر إليه بأن مدخول مكة لا يفي بمصالحنا وهذا الحامل لنا على هذا. فكتب الشيخ علوان إلى السلطان صلاح الدين وذكر له حاجة أمير مكة، وعرّفه أن البلد ضعيفة وأنها ما تُدخل من أموال لا يكفيه، وأن ذلك هو الذي حمله على هذه البدعة الشنيعة. فأنعم عليه السلطان صلاح الدين بثمانية آلاف إردب قمح وقيل بألفي دينار وألفي إردب قمح وأمره بترك هذه المظلمة.

وكان مواظبًا على صلاة السنة وكان له ركعات يصليها إذا استيقظ بوقت من الليل، وإلا صلاها قبل صلاة الصبح، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى، وكان يصلي قائمًا في مرضه الذي أصيب به في آخر أيامه وكان سببًا في وفاته.

ذكر طرف من مناقبه وشجاعته:

كان السلطان صلاح الدين رضي الله عنه ديّنًا ورعًا زاهدًا كثير العبادة يحافظ على الصلوات الخمس في أوقاتها

جماعة في المسجد، حتى في أيام مرضه كان يتجلد ويحضرها كما ذكره ابن شداد، وكان مع ذلك مواظبًا على السنن والرواتب وقيام الليل، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى، وهو مع ذلك رحمه كان ينتقي إمامه ويتخيره عالمًا بالقرءان متقنًا ضابطًا لحفظه، وكان رحمه الله خاشع القلب غزير الدمعة رفيقًا حليمًا شفوقًا ناصحًا محبًا للعلم وطلبه، شديد الرغبة في سماع الحديث، فكان إذا سمع بشيخ محدث ذي رواية عالية وكان ممن يحضر مجالس السلاطين استدعاه وأخذ عنه فسمع وأسمع أولاده ومماليكه، وإن كان هذا الشيخ ممن لا يقصدون أبواب السلاطين سار إليه بنفسه فسمع منه وقرأ وأخذ عنه، وكان رضي الله عنه عادلاً رؤوفًا رحيمًا ناصرًا للضعيف المظلوم، وقد حدث ابن شداد مرة فقال: "لقد رأيته وقد استغاث به إنسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقي الدين ابن أخيه فأنفذ إليه ليحضر مجلس الحكم وكان تقي الدين هذا مقربًا إليه محبوبًا لديه عظيمًا في عينه ولكنه لم يحابه في مثل هذا الأمر بل استدعاه حرصًا على إقامة العدل.

كان رحمه الله سلطانا شجاعًا كريم الأخلاق، عالمًا صالحًا متواضعًا. وقالوا: "لم يؤخر صلاة عن وقتها ولم يصل الصلاة المفروضة إلا في جماعة". كان قانتًا لا تأخذه في الله لومة لائم. وكان في مجلسه يجمع العلماء والفضلاء والفقراء وأصحابه كأنما هم على قلب رجل واحد.

أما الشجاعة والصبر فقد بلغ السلطان في ذلك شأوًا كبيرًا، فكان رحمه الله من عظماء الشجعان، قوي النفس شديد البأس عظيم الثبات، لا يهوله أمر العدو، ومن أشهر أعماله الحربية وأعظمها تحرير بيت المقدس وفتح القدس، حيث نزل عليها في الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وتسلمها يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب لمناسبة ذكرى الإسراء والمعراج وأقيمت الجمعة، فعلت الأصوات بالتكبير والتهليل، وكان فتحًا وتحريرًا عظيمًا مهيبًا.

من وصاياه:

وقد ورد أنه أوصى أحد أولاده قائلاً: "أوصيك بتقوى الله، فهي رأس كل خير، وآمرك بما أمر الله به، فإنه سبب نجاتك، واحذر من الدماء والدخول فيها والتقلد بها، فإن الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالها، ولا تحقد على أحد فإن الموت لا يُبقي على أحد".

وكان رحمه الله إذا سمع أن العدو دهم بلاد المسلمين خرّ إلى الأرض ساجدًا داعيًا إلى الله بهذا الدعاء: "إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ولم يبق إلا الإخلاد إليك والاعتصام بحبلك والاعتماد على فضلك أنت حسبي ونعم الوكيل".

قال القاضي ابن شداد: "رأيته ساجدًا والدموع تتقاطر على لحيته ثم على سجادته ولا أسمع ما يقول، ولم ينقض ذلك اليوم إلا وتأتيه أخبار الانتصار على الأعداء".

وكان يتخير وقت صلاة الجمعة للهجوم على أعدائه تبركًا بدعاء الخطباء له بالنصر على المنابر.

آثاره ووفاته:

بنى المساجد والمدارس وعمّر قلعة الجبل في القاهرة وسوّرها، وبنى قبة الشافعي، وكان شافعي المذهب، أشعري الاعتقاد، لحقه ليلة السبت سادس عشر من صفر تعب عظيم وغشيته نصف الليل حُمى شديدة وأخذ المرض في التزايد فقصده الأطباء واجتمعوا لديه ينظرون أمره والحمى تثقل عليه حتى أخذته رعشة وأغمي عليه واشتد الخطب في البلد فعم الحزن وكثر البكاء ولحقه في اليوم العاشر من مرضه عرق شديد حتى نفذ من الفراش، واشتد مرضه ليلة الثاني عشر من مرضه فحضر عنده الشيخ أبو جعفر إمام الكلاسة ليبيت عنده في القلعة يذكره الشهادتين عند

الاحتضار، فكان أن توفي السلطان من تلك الليلة في السابع والعشرين من صفر وأخرج بعد صلاة الظهر من يوم الأربعاء في تابوت مسجى وصلى عليه الناس ثم دفن في قلعة دمشق في الدار التي كان يقيم بها وأنزل إلى لحده وقت العصر بعد الصلاة من اليوم المذكور، وقد كانت وفاته سنة ٥٨٩ هجري الموافق له ١١٩٣ رومي عن سبع وخمسين سنة، وخلف سبعة عشر ذكرًا وبنتًا واحدة. ولم يوجد في خزانته الخاصة سوى دينار وأربعين درهمًا. أقام في السلطنة أربعًا وعشرين سنة توفي بعدها وعمره سبعٌ وخمسون سنة، وله مقام ظاهر يزوره المسلمون تبركًا بسيرته العطرة ونهجه السوي. وقد كان لهذا السلطان المجاهد ثلاثة عوامل هيأت له النجاح بتوفيق الله وكرسته حاكمًا وقائدًا وفارسًا شجاعاً لا يخشى فى الله لومة لائم، يزين كل ذلك دين وتقوى وورع وحنكة عسكرية، فما هي إلا سنوات قليلة حتى استطاع أن يمد سلطانه من مصر إلى بلاد الشام ويوحد البلاد والعباد، ويعيد الأرض لأصحابها وللأمة قوتها بعد الوهن والضعف الذي أصابها رحمه الله رحمة واسعة وجزاه الله بأحسن ما يجازي به أوليائه

إعداد:

قسم البحوث والدراسات

جمعية آل البيت للتراث والعلوم الشرعية

٢١ رجب ١٤٢٨هجري الموافق له ٤ أغسطس ٢٠٠٧ رومي.

حدائق الفصول للإمام تاج الدين المكي الحموي

المعروفة بالعقيدة الصلاحية

أفتَـــــتحُ المقـــــالَ بســـــمِ اللهِ وأكِـــــلُ الأمـــــرَ إلى الإلَـــــهِ

وأحمـــــدُ اللهَ الـــــذي قَـــــدْ ألهَمـــــا بفضـــــلهِ دينًـــــا حَنيفًـــــا قَيّمـــــا

حَمـــــدًا يكـــــونُ مُبلغِـــــي رِضـــــوانَهْ فهْـــــوَ إلهـــــي خَـــــالقي سُـــــبحانَهْ

ثُـــــمَّ أصـــــلّي بعـــــدَ حَمـــــدِ الصَّـــــمَدِ علـــــى الـــــنبيّ المصـــــطفى محمَّـــــدِ

وأســـــألُ اللهَ إلـــــهَ الخَلْـــــقِ هدايـــــةً إلى سَـــــبيلِ الحـــــقّ

فهـــــذِهِ قواعِـــــدُ العقائِـــــدِ ذكـــــرْتُ منهـــــا مُعظَـــــمَ المقاصِـــــدِ

نظمْتُهـــــا شِـــــعرًا يخِـــــفُّ حِفظُـــــهُ وفَهمُـــــهُ ولا يشِـــــذُّ لفظُـــــهُ

حَكيـــــتُ فيهـــــا أعـــــدلَ المـــــذاهبِ لأنَّـــــه أنهَـــــى مُـــــرادَ الطالـــــبِ

جَمعتُهـــــا للملِـــــكِ الأمـــــينِ النَّاصـــــرِ الغـــــازي صَـــــلاحِ الـــــدّينِ

عزيـــــزِ مصـــــر قيصـــــرِ الشَّـــــامِ ومَـــــنْ ملَّكَـــــهُ اللهُ الحِجـــــازَ والـــــيمنْ

ذي العَـــــدلِ والجُـــــودِ معًـــــا والبـــــاسِ يوســـــفَ مُحيـــــي دولـــــةِ العبـــــاسِ

ابـــــنِ الأجَـــــلّ الســـــيدِ الكـــــبيرِ أيـــــوبَ نَجـــــمِ الـــــدينِ ذي التَّـــــدبيرِ

لا زالـــــتِ الأيـــــامُ طَـــــوْعَ أمـــــرهِ والسَّـــــعْدُ يَســـــعى مـــــعَ جيـــــوشِ نصَـــــرهِ

حتـــــى ينـــــالَ منتهـــــى ءامالِـــــهِ مؤيَّـــــدًا ممتَّعًـــــا بآلـــــهِ

لمـــــا اســـــتفاضَ في الأنـــــامِ مَيلُـــــهُ إلى اعتقـــــادِ الحـــــقّ وهْـــــوَ أهلُـــــهُ

حَكيـــتُ فيـــهِ أعـــدَلَ المـــذاهبِ ... إذْ كـــانَ أنهَـــى مُنتهَـــى المطالـــبِ

مَخَّضـــتُ كُتْـــبَ النـــاسِ واســـتخرجْتُها ... لا فَضـــلَ إلا أنـــني ابتكرتُهـــا

لقَّبتُهـــا حـــدائقَ الفصـــولِ ... ثمارُهـــا جـــواهِرُ الأصـــولِ

وهـــا أنـــا أبـــدأُ بالحَـــدّ كمَـــا ... بـــدا بـــهِ في القَـــولِ مَـــن تقـــدَّمَا

لأنَّ مَـــن لم يعـــرِفِ الحُـــدودا ... أضـــاعَ ممـــا يَطلُـــبُ المقصُـــودا

فـــإنْ رأيْـــتَ حُمـــرةً في خَطّـــي ... مُثبتَـــةً فهْـــيَ للفـــظِ شَـــرْطِ

أو لفْـــظِ حـــدّ فـــانْفِ مَـــا عـــداهُ ... وحَـــرِّرِ اللفـــظَ بحـــدِّ أداهُ

أو نُكتـــةٍ تصـــلُحُ أن تُميَّـــزا ... وأنَّ مـــا فعلتُـــه تَحـــرُّزا

أو رســـمِ فَصـــلٍ فـــاعرِفِ الإشـــارةْ ... إذا أتَـــتْ كَـــي تُحسِـــن العِبـــارةْ

فإنَّمـــا أوردتُـــهُ اضـــطِرارَا ... وقـــدْ ذَكـــرتُ ذلـــكَ اســـتظهارَا

فـصـل

قـــالَ شُـــيوخُ هـــذه الطريقـــةْ ... لا فـــرْقَ بـــينَ الحَـــدّ والحَقيقـــةْ

وذكـــروا معناهُمـــا مِـــنْ بعـــدُ ... مُســـتوعبًا في كُـــلّ مَـــا يُحَـــدُّ

وهَـــا أنـــا أنقلُـــهُ وأوجِـــزُهْ ... خَصيصَـــةُ الشـــيءِ الـــتي تُميّـــزُهْ

وهكـــذا إنْ قيـــلَ مـــا الشـــيءُ وَمـــا ... مَائيَّـــةُ الشـــيءِ ومَـــا معناهُمـــا

والشـــيءُ مِمَّـــا يســـتطيعُ حَـــدَّهُ ... عـــلا علـــى الأشـــياءِ رَبـــي وحـــدَهُ

فكلُّهـــا أســـئلةٌ معـــدَّدَةْ ... لفظًـــا وفي مَقصـــودِهَا مُتَّحـــدَهْ

فـصـل

واعلـــمْ بـــأنَّ الحَـــدَّ وصْـــفٌ راجـــعُ ... حقًّـــا إلى المحـــدودِ وهْـــوُ قَـــاطِعُ

دونَ كـــلامِ الحَـــدّ فـــاعرِف لَفظـــي ... وواظِـــبِ التَّكـــرارَ بعـــدَ الحِفـــظِ

وانفـــردَ القاضـــي لِســـانُ الأمَّـــهْ ... بمـــذهبٍ عـــن مُعظـــمِ الأئمّـــهْ

فقـــالَ إنَّ الحَـــدَّ وصْـــفٌ راجـــعُ ... إلى كَـــلامِ الحَـــدّ وهْـــوَ شَاسِـــعُ

فـصـل

وأبلَـــغُ الألفـــاظِ في التحديـــدِ ... مـــا قـــالَ أهـــلُ العلـــمِ بالتَّوحيـــدِ

وذاكَ مُختـــارُ الإمـــامِ الأوحَـــدِ ... أبـــي المعـــالي بـــنِ أبـــي مُحمَّـــدِ

الحَـــدُّ لفـــظٌ يَجمـــعُ المحـــدُودا ... ويَمنـــعُ النُّقصـــانَ والمزيـــدا

وقَـــال مَـــنْ قـــدْ أحكَـــمَ الأصُـــولا ... أرى الـــذي ذكرتَـــهُ مَـــدخولا

وأوضَـــحَ الـــدَّخْلَ وأبـــدى قولَـــهُ ... اللفـــظُ لا جَمْـــعَ ولا مَنـــعَ لـــهُ

واعلـــمْ بـــأنَّ الـــدخْلَ غـــيرُ مَاضـــي ... إلاَّ علـــى مـــا يرتضـــيهِ القاضـــي

وقيـــل فيمـــا قـــدْ حكـــاهُ الأوَّلُ ... الجَـــامعُ المـــانعُ وهْـــوَ مُجمَـــلُ

وقـــد سمعـــتُ فيـــهِ لفظًـــا رائقـــا ... مُطَّـــرِدا منعكسًـــا مُوافقـــا

حـــرَّرَهُ فُحُـــولُ أهـــلِ المنطـــقِ ... وســـلكوا فيـــهِ أسَـــدَّ الطُّـــرُقِ

وهْـــوَ كمـــا أذكـــرُ فافْهمْـــهُ كمـــا ... فهِمتُـــهُ تجـــدْهُ حَـــدّا مُحكمَـــا

قَـــوْلٌ وجيـــزٌ زِدهُ في صِـــفاتهِ ... دلَّ علـــى مَحـــدودِه مـــن ذاتِـــهِ

واشـــــترطُوا للحَـــــدّ شَـــــرطينِ هُمـــــا جِـــــنسٌ وفصْـــــلٌ لا غَنَـــــاءَ عنهُمـــــا

والرَّســـمُ غـــيرُ الحَـــدّ فيمـــا ذَكـــروا قَـــد أطنَبـــوا في وَصـــفهِ وأكثـــروا

فالشـــيء لا يُحـــدُّ لكـــن يُرسَـــمُ لعَـــدَمِ الفَصـــلِ كَـــذا قـــدْ رسمُـــوا

فـصـل

فـي أول مـا يـجـبُ عـلى المكلَّفِ

أوَّلُ واجـــبٍ علـــى المكلَّـــفِ البـــالغِ العاقـــلِ فَـــافهَمْ تكتَـــفِ

بالشَّـــرعِ لا بالعقـــلِ إذ لا حُكـــمَ لـــهْ خَالفَنـــا في ذلـــكَ المعتزلـــهْ

مَعرفـــةُ اللهِ وقُـــدسِ ذاتِـــهِ وكُـــلّ مـــا يَجـــوزُ مـــنْ صـــفاتِهِ

وقيـــلَ بـــلْ أوَّلُ فَـــرضٍ لزِمَـــا النَّظَـــرُ المفضـــي إلى العلـــمِ بمـــا

قدَّمتُـــهُ وإنمـــا ضـــمَّنتُهُ ليحصـــلَ المقصـــودُ ممَّـــا رمتُـــهُ

وقيـــلَ بـــل أوَّلُ جُـــزءِ النَّظَـــرِ واختـــارَهُ القاضـــي الجليـــلُ الأشـــعري

وذكَـــرَ الأســـتاذُ قـــولا رابَعـــا أعـــني أبـــا بكـــرِ الإمـــامَ البَارِعـــا

فقـــالَ قصـــدُ النَّظَـــرِ المفضـــي إلى معرفـــةِ الصـــانعِ بارينَـــا عَـــلا

فـصـل

فـي مـاهـية العـقـل

العقـــلُ لا يَقـــدِرُ أنْ يَحُـــدَّهْ إلا إلـــهُ العـــالمينَ وحـــدَهْ

لأنَّـــه خَصيصَـــةٌ أودَعهَـــا في الآدمـــيّ جَـــلَّ مَـــن أبـــدعهَا

وكُـــلُّ ذي رُوحٍ لـــهُ إلهـــامُ تَعجِـــزُ عَـــن إدراكِـــهِ الأفهـــامُ

كالنَّحـــلِ خُـــصَّ ببـــديعِ الهندَسَـــةْ حَتـــى بَنـــى بيُوتَـــهُ مُسَدسَـــةْ

وهكـــذا خصـــائصُ الأحجـــارِ مِـــنْ حِكمـــةِ المهـــيمنِ الجبَّـــارِ

وقـــدْ أطـــالَ البحـــثَ عنـــهُ الســـلفُ وزادَ في الغَـــوصِ عليـــهِ الخلَـــفُ

واضـــطربت عبـــارةُ الأوائـــلِ في حَـــدّهِ ومَـــا أتـــوا بطائـــلِ

وهُـــم أولـــو العُلـــومِ بالطَّبـــائعِ لا عِلـــمَ إلا للبَـــديعِ الصَّـــانعِ

وأكثَـــروا التَّحديـــدَ والتَخليطـــا حتَّـــى دعـــوْهُ جـــوهرًا بســـيطا

وبعضُـــهُم أقـــرَّهُ في الـــرَّاسِ وخصَّـــهُ بالقلـــبِ بعـــضُ النـــاسِ

فـــأقربُ الحـــدودِ في المعقـــولِ مـــا قالَـــهُ أئمـــةُ الأصـــولِ

وقـــد حكـــاهُ صـــاحبُ الإرشـــادِ فيـــهِ وقـــدْ عُـــدَّ مـــنَ الأفـــرادِ

بعـــضُ العلـــومِ ثُـــم زادَ وصَـــفا وهُـــو الضَّـــروريةُ لـــيسَ يخفـــى

هـــذا هـــو المختـــارُ فيمـــا ذَكـــروا وهْـــوَ علـــى التَّحقيـــقِ حَـــدٌّ مُنكَـــرُ

فـــإنْ يكُـــن بعـــضُ العلـــومِ مطلقَـــا لا يعرفـــونَ عينَـــه مُحقَّقَـــا

فَهـــم بـــهِ مـــن جُملـــةِ الجُهَّـــالِ ومـــا حَكَـــوْهُ ظـــاهرُ الإجمـــالِ

وإنْ يكُـــن عنـــدَهُم مُعيَّنَـــا هـــلاَّ أتَـــى في لَفظهـــم مُبيَّنَـــا

فـــإنَّ أنـــواعَ العُلـــومِ سِـــتَّةْ لـــيس لهـــا نـــوعٌ سِـــواها بتَّـــةْ

تُـــدرَكُ بالرؤيـــةِ والسَّـــمْعِ ومـــا أذكـــرُهُ مـــن بعـــدُ حتَّـــى تفهَمـــا

الشـــمُّ واللمـــسُ معًـــا والـــذوقُ فهـــذِهِ الخمْـــسُ إليهـــا التَّـــوْقُ

ومُـــدرِكُ الســـادسِ مـــن أنواعهـــا ... الـــنَّفسُ إذ ذلـــكَ مـــن طِباعهَـــا

كعلـــمِ كُـــلّ عاقـــلٍ بصـــحَّتِهْ ... وسُـــقمِهِ وعَجـــزِهِ وقُدرتِـــهْ

والفـــرَحِ الحـــادثِ والآلامِ ... ثـــمَّ العَمَـــى والقصـــدِ بـــالكلامِ

والقَطـــعِ في الأخبـــارِ بالتَّصـــديقِ ... أو ضِـــدّهِ فيهـــا علـــى تحقيـــقِ

وأنَّ مـــا قـــامَ بـــهِ السُّـــكونُ ... إذ كـــانَ في التحريـــكِ لا يكـــونُ

ومـــا أحـــالَ العقـــلُ في الأضـــدادِ ... كـــالجمعِ للبيـــاضِ والسَّـــوادِ

ومـــا تـــواترتْ بـــهِ الأخبـــارُ ... فـــاسمعْ فهـــذا قالَـــهُ الأحبـــارُ

كـــالعلمِ بـــالملوكِ والأمصـــارِ ... ومـــا جـــرى في غـــابرِ الأعصـــارِ

ومعجـــزاتِ الأنبيـــا كمُوســـى ... والمصـــطفى محمَّـــدٍ وعيســـى

فخَصّـــصِ العقـــلَ بنـــوعٍ منهـــا ... تجـــدهُ عنـــدَ السَّـــبْرِ ينـــأى عنهـــا

واعلـــمْ هُـــديتَ إنمـــا تجـــوَّزوا ... كـــي لا يُقـــالَ إنَّهُـــم قـــد عجـــزوا

وهُـــم أولـــو القـــرائح الوَقَّـــادَة ... والعلـــم والسُّـــؤدَدِ والسّـــيادَة

فـصـل

فـي حـقـيـقـة العـلـم

العِلـــمُ بَحـــرٌ حَـــدُّهُ لا يُعـــرفُ ... قَـــد قالَـــه أهـــلُ الحِجـــى وأنصـــفوا

مـــع أنَّ كُـــلا غـــاصَ فيـــهِ جُهـــدَهُ ... ولم ينَـــل بعـــدَ العنـــاءِ قصـــدَهُ

وهُـــم ذَوو الفضـــائِلِ المشـــتهِرَة ... العلمـــاءُ الأذكيـــاءُ المهـــرَة

وَهَـــا أنـــا أذكُـــرُ مـــا قـــالوهُ ... ومَـــا مـــنَ المـــأثورِ أوردوُهُ

معرِفَـــةُ المعلـــومِ قـــالَ الأوحَـــدُ ... أبـــو المعـــالي إنَّـــهُ مُطَّـــرِدُ

حَكـــاهُ في التلخـــيصِ للتقريـــبِ ... وقـــدْ أتـــى النقـــلُ علـــى التَّرتيـــبِ

مـــعَ أنَّـــه الحَـــبرُ حكَـــى في كُتْبـــهِ ... زيـــادةً وهْـــي عَلـــى مـــا هُـــوْ بـــهِ

واختـــارَ هـــذا أكثـــرُ الأصـــحابِ ... العَـــارفونَ سُـــبُلَ الصـــوابِ

وهْـــوَ كـــلامٌ ظـــاهرُ الفسَـــادِ ... يَعرفُـــهُ ذو العلـــم والسَّـــدادِ

لأنَّهُـــم قَـــد جعلـــوا المعـــدومَا ... مـــن غـــيرِ خُلْـــفٍ بيـــنَهم معلومًـــا

ومالَـــهُ مائيَّـــةٌ فتُحصَـــرا ... ومَـــن أتـــى بجَهـــدِهِ مَـــا قصَّـــرَا

وقـــدْ أتـــوا فيـــهِ بلفـــظِ المعرِفَـــةْ ... وهـــيَ والعلـــمُ سَـــواءٌ في الصّـــفَةْ

وإنْ تَقُـــلْ مـــا يُعلَـــمُ المعلـــومُ بـــهِ ... كنـــتَ أسَـــدَّ قائِـــلٍ في مذهبـــهِ

وقـــد أطـــالَ النـــاسُ في تَحديـــدِهِ ... قِـــدمًا ولم يـــأتوا علـــى مقصـــودِهِ

وبعضُـــهُم يـــنقُصُ حَـــدَّ بعـــضِ ... حتَّـــى تســـاوَتْ كلُّهَـــا في الـــنَّقضِ

وكـــلٌّ مـــا قـــالوهُ إقنـــاعيٌّ ... في معـــرضِ التحديـــدِ لا قَطعـــيٌّ

وكـــلٌّ لفـــظٍ عـــنهُم منقـــولِ ... يقصـــرُ عَـــن مـــدارِكِ العُقـــولِ

فـصـل

في حـدّ الجـهل

وإنْ أردْتَ أن تَحُـــدَّ الجَهـــلا ... مِـــن بَعـــدِ حـــدّ العلـــمِ كـــان ســـهْلا

وهْـــو انتفـــاءُ العلـــمِ بالمقصـــودِ فـــاحفظْ فهـــذا أوجَـــزُ الحُـــدودِ

وقيـــل في تحديـــدهِ مـــا أذكُـــرُ مـــنْ بعـــدِ هـــذا والحُـــدودُ تكثُـــرُ

تصَـــوُّرُ المعلـــومِ هَـــذا حرفُـــهُ وحَرفُـــهُ الآخَـــرُ يـــأتي وصـــفُهُ

مُســـتوعَبًا علـــى خِـــلافِ هَيئتِـــهْ فَـــافهَمْ فَهـــذا اللفـــظُ مِـــن تَتِمَّتِـــهْ

فـصـل

في حـقيـقـة الشـكّ والظـنّ

أوجـــزُ لفـــظ قـــد أتـــى في حَـــدّه تَجـــويزُ أمـــريْنِ وزِدْ مِـــن بعـــدِه

سِـــيَّانِ في التَّجـــويزِ وهْـــوَ ءاخـــرُهْ وقَـــد أجـــادَ لَفظَـــهُ مُحـــرّرُهْ

وإنْ تقُـــلْ مـــعَ ظهـــورِ الواحِـــدِ تقِـــفْ مـــنَ الظـــنّ علـــى المقاصِـــدِ

فـصـل

فـي حـدّ السـهـو

للسَّـــهوِ حَـــدٌّ مَـــن نَحـــا أن يَفهمَـــهْ فهْـــوَ ذُهـــولُ المـــرءِ عمَّـــا علِمَـــهْ

فـصـل

فـي حدّ الدليل

وإنْ تُـــرِدْ مَعرفـــةَ الـــدَّليلِ مِـــنْ غـــيرِ إطنـــابٍ ولاَ تطويـــلِ

فإنَّـــهُ المرشِـــدُ فـــافهَمْ لفظَـــهُ وهْـــوَ إلى المطلـــوبِ أحكِـــمْ حِفظَـــهْ

وحَـــدُّهُ المـــأثورُ في التَّلخـــيصِ لم يتـــأت لـــي علـــى المنصـــوصِ

وهْـــوَ الـــذي ءاثـــرَهُ الفُحـــولُ وشـــهِدَتْ بقطعِـــه العُقـــولُ

فـصـل

فـي تـقـسـيـم الـعـلـم

العلـــــمُ قســـــمانِ ســـــوى القـــــديمِ ... عِلـــــمُ إلهـــــي جَـــــلَّ عـــــن تَقســـــيمِ

قِســـــمٌ ضَـــــروريٌّ فكـــــلُّ عاقـــــلِ ... يعرفُـــــهُ مـــــن عـــــالِمٍ وجَاهـــــلِ

ولاَ يسُـــــوغُ الانفكـــــاكُ عنـــــهُ ... لعاقـــــلٍ والانفصـــــالُ منـــــهُ

هـــــذا إذا مـــــا صـــــحَّتِ الآلاتُ ... وانتفـــــتِ الأســـــقامُ والآفـــــاتُ

وقـــــد مضـــــتْ أنواعُـــــهُ مســـــتوعبَةْ ... مُـــــوجزَةً بيّنَـــــةً مُهذَّبَـــــةْ

والنَّظـــــريّ قِســـــمُهُ الثـــــاني فَمـــــا ... أجلَّـــــهُ فـــــانظُر إلى أنْ تعلَمَـــــا

فكُـــــلُّ مـــــا عرفتَـــــهُ اســـــتِدلالا ... فنظـــــريٌّ فـــــاعرِفِ الأمثـــــالَ

فـصـل

في حد العالَم

فَكـــــلُّ مـــــا أوجـــــدَهُ إلهُنـــــا ... عُبّـــــرَ بالعـــــالَم عنـــــهُ هَاهُنـــــا

وَهْـــوَ علـــى نـــوعينِ نَـــوعٌ عَـــرَضُ ... والآخَـــرُ الجـــوهَرُ تمَّ الغـــرَضُ

ومنهُمـــــا تـــــأتلِفُ الأجســـــامُ ... فـــــاحفظ فكُـــــلُّ حَـــــافظٍ إمـــــامُ

ولـــيس يَعـــرى جـــوهَرٌ عـــنْ عَـــرَضِ ... هـــذا هُـــوَ المختـــارُ فـــافهَمْ غَرضـــي

وأنكـــــرَتْ جماعـــــةُ الملاحـــــدَةْ ... العـــــرَضَ المـــــدرَكَ بالمُشـــــاهدَةْ

وقـــــدْ رأوْا تحـــــرُّكَ الجَـــــواهرِ ... بعـــــدَ سُـــــكونٍ شـــــاهدوهُ ظـــــاهِرِ

وعقلـــــوا فَرقًـــــا ضـــــروريًّا فمَـــــا ... أضـــــلَّهُم إذْ جهلـــــوا مَـــــا عُلِمَـــــا

فـصــل

فـي حـقـيـقـة الجـوهـر

فكُـــلُّ مـــا حُيِّـــز فهْـــوَ جَـــوهرُ هـــذا هـــوَ المـــأثورُ ممَّـــا ذكـــروا

وقيـــلَ مـــا قامَـــتْ بـــهِ الأعـــراضُ ومَـــا علـــى مـــا قلتُـــهُ اعـــتراضُ

وقـــالَ قـــومٌ كـــلُّ جِـــرمٍ جَـــوهرُ وهْـــوَ علـــى شُـــذوذِهِ مُحـــرَّرُ

فـصــل

فـي حـقـيـقـة العَـرَض

ومـــا تقَضَّـــى بتقضّـــي الـــزَّمَنِ فعَـــرَضٌ مثـــلُ اخضـــرارِ الـــدِّمَنِ

وســـائرِ الطُّعـــومِ والألـــوانِ والعَجـــزِ والقُـــدرةِ والأكـــوانِ

وكَـــالأرائِجِ وضَـــوءِ النَّـــارِ وحرّهـــا والليـــلِ والنَّهـــارِ

والمـــوتِ والحيـــاةِ والتـــأليفِ والنُّطـــقِ والسُّـــكوتِ والتـــأفيفِ

والعلـــمِ والجهـــلِ فَسُـــقْ مـــا اســـتبْهَمَ في ضـــمنِ مـــا ذكـــرْتُ حَـــدّا أَمَمَـــا

وقـــالَ في تحديـــدِهِ ابـــنُ فُورَكـــا مـــا لَـــمْ يقُـــم بنفسِـــه كَـــذا حَكَـــى

وقـــالَ كـــلُّ بـــارعٍ مُســـتيقظِ مـــا يتلاشـــى حـــينَ ينشـــا فـــاحفظِ

فـصــل

وجُملـــةُ الأعـــراضِ نوعـــانِ هُمـــا مُفـــارقٌ ولازِمٌ فاعرفهُمـــا

أمَّـــا الـــذي يُفـــارقُ الجـــوهرا فقـــدْ تـــراهُ يتلاشـــى ظـــاهِرا

والـــلازمُ الناشـــي مـــن الأعـــراضِ مـــعَ التلاشـــي وهْـــوَ كالبيـــاضِ

وســـــائرِ الألـــــوانِ فـــــاعرِفْ أصـــــلَهُ والحِقَـــــنْ بكـــــلّ نـــــوعٍ مِثلَـــــهُ

فـصـل

في بيـان حقـيقة الجسم

الجســـمُ مـــا أولـــفَ مـــنْ جـــواهِرِ فهـــــذهِ عبـــــارةُ الأكـــــابرِ

ومـــــنهُمُ مَـــــن قـــــالَ جـــــوهرينِ فمـــــا يزيـــــدُ فـــــافهمِ الحَصـــــرينِ

فـصـل

والعـــــالمُ العلـــــويُّ والســـــفليُّ أنشـــــأهُ إلهُنـــــا العَلـــــيُّ

واعلـــــمْ بـــــأنَّ العُقـــــلاءَ أطبقـــــوا قَطعًـــــا علـــــى حُدوثِـــــهِ واتفقـــــوا

مـــــن ســـــائرِ الأصـــــنافِ كالجهميَّـــــة ومنكـــــري الرُّسْـــــلِ مـــــع الجبريَّـــــة

وشَـــــذَّ عـــــنهُم ســـــائرُ الدَّهريـــــة في فِـــــرقٍ مـــــن الهَيولائِيَّـــــة

وأنكـــــروا حُدوثَـــــهُ في الأصـــــلِ ثُـــــمَّ ادَّعَـــــوا بقـــــاءَهُ عَـــــنْ فَضـــــلِ

وكـــــلُّ مـــــا مضَـــــى مـــــنَ الكـــــلامِ في حـــــدَثِ الأعـــــراضِ والأجســـــامِ

دَلَّ علـــــى الحُـــــدوثِ بالمشـــــاهدَةْ كَمـــــا ذكرنـــــاهُ مـــــعَ الملاحـــــدَةْ

فالجســـمُ لا يَخلـــو مـــنَ الأعـــراضِ كمـــا حَكيـــتُ في الكـــلامِ الماضـــي

واعلـــــمْ بـــــأنَّ دَوَرانَ الفَلَـــــكِ في حـــــدَثِ العـــــالَمِ أقـــــوى مَســـــلَكِ

لأنَّـــــهُ يحـــــدثُ في العِيـــــانِ مُشـــــاهدًا بحـــــدَثِ الزَّمـــــانِ

فالـــــدَّوراتُ الحادثـــــاتُ كـــــالتي في غـــــابرِ الأعصـــــارِ قـــــدْ تولَّـــــتِ

إذْ كـــــلُّ مـــــا ليســـــتْ لـــــهُ نهايـــــة يلـــــزَمُ فـــــرضُ الحُكـــــمِ في البدايـــــة

فنفـــــرِضُ المقصـــــودَ في كلامِنـــــا ... في دورةٍ تحـــــــــدُثُ في زَمانِنـــــــا

وكـــلُّ شـــيءٍ حـــادثٍ لا بـــدَّ لـــه ... مَـــنْ مُحـــدِثٍ فضَـــلَّ مَـــنْ قـــدْ جهِلَـــه

هـــذا الـــذي يلـــزَمُ في العقـــولِ ... فـــافهمْ فـــذا أصـــلٌ مـــن الأصـــولِ

فـصـل

وصـــانعُ العـــالَمِ فَـــردٌ واحِـــدُ ... لـــيسَ لـــهُ في خلقِـــهِ مُســـاعِدُ

جَـــلَّ عـــن الشَّـــريكِ والأولادِ ... وعـــزَّ عـــن نقيصـــةِ الأنـــدادِ

فـصـل

في حقيقة الواحد

والواحِـــدُ الشـــيءُ الـــذي لا ينقسِـــم ... والشـــيءُ إن أفردتَـــهُ لم يَقتسِـــم

وقـــدْ حكـــاهُ وارتضـــاهُ المـــاهرُ ... أبـــو المعـــالي وهْـــو حَـــدٌّ قاصِـــرُ

فـصـل

وهْـــوَ قـــديمٌ مـــا لَـــهُ ابتـــداءُ ... ودائـــمٌ لـــيسَ لـــه انتهـــاءُ

لأنَّ كُـــلَّ مـــا اســـتقرَّ قِدَمُـــهْ ... فيســـتحيلُ في العقـــول عدَمُـــهْ

فـصـل

لـــيسَ بجســـمٍ إذ لكـــلّ جســـمِ ... مُؤلِّـــفٌ مُخصِّـــصٌ بعلـــمِ

ويلـــزمُ المخصّـــصَ المؤلفـــا ... مَـــا لـــزِم المنـــزّهَ المكلَّفَـــا

فينقضـــي القـــولُ إلى التسلســـلِ ... في عقـــلِ كُـــلّ يقِـــظٍ مُحصّـــلِ

أو ينتهـــي الأمـــرُ إلى قَـــديمِ ... فيســـتوي في الـــنهجِ القَـــويمِ

وهْـــوَ الـــذي سُـــمّي جـــلّ صَـــانِعا وبارئًـــــا ومُعطيًـــــا ومانِعَـــــا

فـصـل

ويســـــتحيلُ أن يكـــــونَ جـــــوهَرا مُجتـــــزءًا أنعِـــمْ هُـــديتَ النَّظـــرا

ثـــم أعِـــدْ مـــا قلتُـــهُ هَنالِكـــا ضـــلَّ النَّصـــارى حـــينَ قـــالوا ذلِكـــا

لأنَّ مـــــا لا يســـــيقُ الحوادثِـــــا يلـــــزَمُ عقـــــلاً أن يكـــــونَ حادِثـــــا

فـصـل

وإن سُـــئلتَ هـــل لـــهُ لـــونٌ أجِـــبْ "بـــلا" تعـــالى اللهُ عـــن لَـــونٍ تُصِـــبْ

سُـــبحانهُ هـــو الإلـــهُ الأحـــدُ المِلِـــكُ الأعلـــى القـــديرُ الصَّـــمَدُ

فـصـل

وصـــانِعُ العـــالَمِ لا يَحويـــهِ قُطْـــرٌ تعـــالى اللهُ عـــن تَشـــبيهِ

قَـــد كـــانَ مَوجـــودًا ولا مكانـــا وحُكمُـــهُ الآنَ علـــى مَـــا كانَـــا

سُـــبحانَهُ جَـــلَّ عَـــن المكـــانِ وعَـــزَّ عَـــنْ تغيُّـــرِ الزَّمـــانِ

فقَـــدْ غـــلا وزادَ في الغُلـــوّ مَـــنْ خصَّـــه بجهـــةِ العُلُـــوّ

وحصَـــرَ الصـــانعَ في الســـماءِ مبـــدِعَها والعـــرشِ فـــوقَ المـــاءِ

وأثبتـــوا لذاتِـــه التحيُّـــزَا قـــد ضـــلَ ذو التشـــبيهِ فيمـــا جـــوَّزَا

فـصـل

قـــد اســـتوى اللهُ علـــى العـــرشِ كمـــا شـــاءَ ومَـــنْ كيَّـــفَ ذاكَ جسَّـــمَا

والاســـتواءُ لفظُـــهُ مشـــهُورةْ لهـــا معـــانٍ جمَّـــةٌ كـــثيرةْ

فنكِـــــلُ الأمَـــــرَ إلى اللهِ كمـــــا فوَّضَـــهُ مَـــنْ قبلَنـــا مِـــنْ عُلمَـــا

والخَـــوضُ في غـــوامِضِ الصـــفاتِ والغـــوصُ في ذاكَ مـــنَ الآفـــاتِ

إذ في صـــفاتِ الخَلـــقِ مَـــا لا عُلِمـــا فَكيـــفَ بالخـــالِقِ فـــانْحُ الأســـلَما

فـصـل

القول في الصفات

اعلـــمْ بـــأنَّ الاســـمَ غـــيرُ التَّســـميةْ ومَـــا أرى بينَهمـــا مـــنْ تســـويةْ

والوصـــفُ في مـــذهبِنا غـــيرُ الصّـــفةْ فَـــاخترْ مـــنَ السُّـــبُلِ ســـبُلَ النَّصَـــفَةْ

وتُحصَـــرُ الصـــفاتُ في أقســـامِ ثلاثـــةٍ تـــأتي علـــى نظـــامِ

منهـــا صـــفاتُ الـــذاتِ نحـــوُ قَـــاهرِ وعـــالِمٍ وقـــادرِ وظـــاهرِ

ثُـــمَّ صـــفاتُ الفعـــلِ نحـــوُ خـــالقِ ومُنشـــيءٍ وباعـــثِ ورازقِ

ثُـــمَّ صـــفاتٌ إنْ أتَتْـــكَ مهْمَلَـــةْ في اللفـــظِ كانـــت لهُمـــا مُحتَملـــةْ

كمُحســـنٍ ومثلُـــهُ اللطيـــفُ جـــاءَ بمعنييهمـــا التوقيـــفُ

إذْ لَفظَـــهُ الأحســـنِ قـــد تُســـتعملُ في العلـــمِ والإنعـــامِ فيمـــا نَقَلـــوا

فـصـل

ونحـــنُ قبـــلَ الخـــوضِ في الصـــفاتِ نُثبـــتُ فصـــلا جيّـــدَ الإثبـــاتِ

يعُـــمُّ إن شـــاءَ الإلـــهُ نفعُـــهُ ولا يَســـوغُ منعُـــهُ ودَفعُـــهُ

فـصـل

اعلـــم أصـــبتَ نهَـــجَ الخَـــلاصِ وفُـــزتَ بالتَّوحيـــدِ والإخـــلاصِ

إنَّ الـــــذي يُـــــؤمنُ بـــــالرحمنِ ... يُثبـــتُ مـــا قـــد جـــاءَ في القـــرءانِ

مـــنْ ســـائرِ الصـــفاتِ والتَّنزيـــهِ ... عـــنْ سَـــنَنِ التعطيـــلِ والتشـــبيهِ

مـــن غـــيرِ تجســـيمٍ ولا تكييـــفِ ... لِمـــا أتـــى فيـــهِ ولا تحريـــفِ

فـــإنَّ مـــنْ كيَّـــف شـــيئًا منهـــا ... زاغَ عـــن الحـــقّ وضـــلَّ عنهـــا

وهكـــذا مـــا جـــاءَ في الأخبـــارِ ... عـــن الـــنبيّ المصـــطفى المختـــارِ

فكُـــلُّ مـــا يُـــروى عـــن الآحـــادِ ... في الـــنصّ في التجســـيم والإلحـــادِ

فاضـــربْ بـــه وجـــهَ الـــذي رواهُ ... واقطـــعْ بأنَّـــه قـــد افـــتراهُ

وإن يكُـــنْ رواهُ ذُو تعـــديلِ ... صَـــدّقْهُ مهمـــا شـــاعَ في التأويـــلِ

وأفـــرَدَ الأســـتاذُ في الأخبـــارِ ... مُصـــنَّفًا يصـــلُحُ للأحبـــارِ

فـــاحفظْ هُـــديتَ هـــذهِ الأصـــولا ... ثـــمَّ الزمَنْهَـــا ودعِ الفُضـــولا

فإنهـــا مُجزئـــةٌ مَـــن قصَـــدا ... مَعرفـــةَ الحـــقّ ومنهـــاجِ الهُـــدى

فهَهنـــا تشـــعَّبَ الإســـلامُ ... فاستســـلَمَ الأئمـــةُ الأعـــلامُ

فـــأنكرتْ صِـــفاتِهِ المعتزلـــةْ ... سُـــبحانَ مـــن أنشـــأنا مَـــا أعدلَـــهْ

وجَعلـــوا كَلامَـــهُ في شـــجرةْ ... لعبـــدهِ مُوســـى ألا مـــا أنكـــرَهْ

وفِرقـــةٌ مـــالوا إلى القيـــاسِ ... فأثبتوهـــا كَصـــفاتِ النـــاسِ

وبعضُـــهم أثبـــتَ منهـــا البعضـــا ... ثـــمَّ نفـــى الـــبعضَ فجـــاءَ عُرْضـــا

ثـــمَّ الخـــلافُ بـــينَ مُثبتيهَـــا ... في نفســـها أكثـــرُ منـــهُ فيهـــا

ولـــــو أخـــــذتُ أذكُـــــرُ المـــــاهبَا كنـــــتَ تَـــــرى في خُلفِهـــــا عَجائِبـــــا

فـصـل

ءاضَ الكـــــلامُ في الصـــــفاتِ فـــــاسمعِ تَعـــــدادَها علـــــى الـــــولا واحفـــــظ وعِ

وصـــــانعُ العـــــالمِ حـــــيٌّ عـــــالمُ لأنَّـــــه ربٌّ بَـــــديعٌ حـــــاكِمُ

حياتُـــــهُ قديمـــــةٌ كذاتـــــهِ وهكـــــذا مـــــا جـــــاءَ مـــــن صـــــفاتِهِ

كـــــالعلم والقُـــــدرةِ والإرادةْ وقَـــــد يُنـــــافي أمـــــرُهُ مُـــــرادَهْ

وهـــــو الســـــميعُ القـــــادرُ المريـــــدُ ذو الـــــبطشِ فعـــــالٌ لِمَـــــا يريـــــدُ

ومـــــنْ صـــــفاتِ الصـــــانعِ البصـــــيرُ ببصـــــرٍ لـــــيس لـــــهُ نظـــــيرُ

فـصـل

وصـــــانعُ العـــــالمِ ذو كـــــلامِ أوصـــــلَ معنـــــاهُ إلى الأفهـــــامِ

كلامُـــــهُ المنـــــزَلُ مـــــن صـــــفاتِهِ وهْـــــوَ قـــــديمٌ قـــــائمٌ بذاتِـــــهِ

وهـــــو إذا تقـــــرؤُهُ بـــــالأحرُفِ مِـــــن بعـــــدِ أن نكتُبَـــــهُ في المصـــــحفِ

تحفظُـــــهُ الصـــــدورُ ذِكـــــرًا كلُّهَـــــا لكـــــن علـــــى التحقيـــــقِ لا يحلُّهـــــا

ويُمنـــــعُ المحـــــدِثُ أن يَمسَّـــــهُ أو يُســـــبغَ الطُّهـــــرَ الصَّـــــحيحَ نفسَـــــهُ

وإنمـــــا نفعلُـــــهُ إجـــــلالا فـــــاقنعْ بهـــــذا وارفُـــــضِ المُحـــــالا

وليسَـــــت الـــــتّلاوةُ المتَلـــــوّا زادَ ذَووا الحشـــــوِ إذًا غُلُـــــوّا

فميّـــــزِ المقـــــروءَ والمكتوبـــــا فـــــاعتبرِ الحســـــابَ والمحسُـــــوبا

وقُـــل لمـــن قـــدْ كيَّـــفَ الكلامَـــا ... بـــالحَرفِ والصـــوتِ معًـــا ســـلامَا

فـــإنَّهم قـــد كـــابروا العِيانـــا ... وخـــالفوا الـــدليلَ والبُرهانـــا

إذ عَـــدَّدوا القـــديمَ في المصـــاحفِ ... وجعلـــوا حَـــديثها كالسَّـــالفِ

وهُـــم إذًا مُـــذ شـــاهدوا الكتابَـــا ... قَـــد حَزَّبـــوا مَـــا كتَبـــوا أحزَابـــا

واختَلفـــت أقلامُهُـــم في الخـــطِّ ... طرائقًـــا علـــى اخـــتلافِ الضَّـــبطِ

وهكـــذا يـــأتي أنـــاسٌ بعـــدَهُم ... مـــا كتبـــوا فهْـــو قـــديمٌ عنـــدهُم

فيـــا أولـــي التشـــبيهِ والتجســـيمِ ... الحـــاءُ في الـــرحمنِ قبـــلَ المـــيمِ

وهكـــذا المتلـــوُّ في كلامِكُـــم ... أيُّهُمـــا القـــديمُ في اعتقـــادِكُم

أضـــللتُمُ الجهَّـــالَ بالتمويـــهِ ... لمـــا ســـلكتُم نهَـــجَ التَّشـــبيهِ

فمَـــن يقُـــل بعـــضَ الـــذي حكَيتُـــهُ ... قطعًـــا علـــى الوجـــهِ الـــذي رويتُـــهُ

فـــذاكَ عَيْـــرٌ قـــالَ لفظًـــا عُـــوّدَهْ ... أدّبـــهُ بالضـــربِ وقصِـــر مقْـــوَدَهْ

ويعسُـــرُ التأديـــبُ إذ قـــدْ أَلِفَـــهْ ... اربطـــهُ في الشـــمسِ وقلّـــلْ علفَـــهْ

أعـــرِضْ قِلًـــى عـــن هـــؤلاءِ الجهلـــهْ ... مَـــن يُضـــلِلِ اللهُ فـــلا هـــاديَ لـــهْ

وكُـــفَّ مـــا اســـتطعتَ عَـــن إفهـــامِهِم ... قـــد طبـــعَ اللهُ علـــى أفهـــامِهِم

القول في أفعال الله جل وعلا

وصـــانِعُ العـــالمِ جلَّـــتْ قُدرتُـــهْ ... قَـــد نفَـــذَتْ في خَلقِـــهِ إرادتُـــهْ

فكُـــلُّ مـــا يحـــدُثُ في الوجـــودِ ... فهْـــوَ مُـــرادُ الواحـــدِ المعبـــودِ

فالفسقُ والعصيانُ والغَوَايةْ ... والرُّشدُ والطاعةُ والهدايةْ

والكفرُ والشِّقوةُ والسعادةْ ... لربّنا سبحانَهُ مُرادَهْ

وكلُّها حقًّا منَ اختراعِهِ ... وكلُّ ما يكونُ من إبداعِهِ

والفعلُ كسبُ العبدِ وهوَ جاري ... على مُرادِ الواحدِ الجبَّارِ

إذ لو يشاءُ لهدى الناسَ على ... ما قالَ جلّ عن تعَدٍّ وعَلا

وهُوَ عَلى زَجرِ العبادِ قادرُ ... سُبحانَهُ هُوَ القويُّ القاهرُ

واستيقِظن لفهمِ أصلِ المسئلةْ ... فهَا هُنا تورَّط المعتزلَةْ

فصل

ما أمرَ اللهُ به عبادَهْ ... ففيهِ ما لم يَجرِ في إرادَة

لأنَّهُ قد أمرَ الخليلا ... في الوحيِ أن يذبحَ إسماعيلا

ولم يُرِدهُ إذ أتاهُ منهُ ... وَحيًا لقد صدَّقتَ أمسكْ عنهُ

فكلُّ ما يبدو من التأويلِ ... نُبطلُهُ في الحالِ بالدليلِ

وهكذا أخبرَ عن أبي لهَبْ ... عمّ النبيّ وابنِ عبدِ المطلبْ

بأنَّه يموتُ وهو كافرُ ... ثُمّ سيصلى النَّارَ وهْوَ خاسرُ

لم يُغنِ عنهُ مالُه وما كسبْ ... تبَّتْ يداهُ إذ عصى اللهَ وتَبْ

وكُلّفَ الإيمانَ بالإجماعِ ... مِنْ غيرِ تأويلٍ ولا نِزاعِ

وينتهي القولُ إلى تكليفِ ... مَا لا يُطاقُ فافهَمْنَ تعريفي

وهكـــــذا قـــــد كُلّـــــف السُّـــــجودا ... إبلـــــيسُ حتمـــــا فعصـــــى المعبُـــــودا

فكيـــــفَ يـــــأتي مـــــارِدٌ سُـــــلطانُ ... بضـــــدّ مـــــا يُريـــــدُهُ الـــــرحمنُ

وقـــــد تـــــرى ذلـــــكَ في العقـــــولِ ... مُجـــــوَّزًا في المثَـــــلِ المنقـــــولِ

فنـــــذكرُ الآنَ المثـــــالَ لفظَـــــا ... فاسمعْـــــهُ نَقـــــلا واحكمْنَـــــهُ لفظَـــــا

عبـــــدٌ شـــــكَى مـــــولًى إلى الســـــلطانِ ... ونســـــبَ المـــــولى إلى العُـــــدوانِ

فاســـــتُدعيَ المـــــولَى فجـــــاءَ ذَعِـــــرَا ... أنَّبَـــــهُ الســـــلطانُ لَمَّـــــا حضَـــــرا

أرادَ أن يعـــــرِفَ مَـــــن قـــــدْ أنَّبَـــــهْ ... علـــــى تعدّيـــــهِ عليـــــهِ ســـــبَبَهْ

وأنَّـــــهُ يخـــــالفُ الأوامِـــــرا ... يُعانِـــــدُ المـــــولى عنـــــادًا ظـــــاهرَا

فقـــــالَ للســـــلطانِ يـــــا مولانـــــا ... مَهـــــلا تـــــرى عِصـــــيانَهُ عِيانَـــــا

فاستحضـــــرَ العبـــــدَ إلى مجلسِـــــهِ ... ولمْ يُفاجئْـــــهُ بمـــــا في نفسِـــــهِ

وأمـــــرَ العبـــــدَ بمـــــا أرادا ... خِلافَـــــهُ كـــــي يُظهـــــرَ العِنـــــادَا

ليعلمَ الســـــلطانُ صـــــدقَ عُـــــذرهِ ... ولم يـــــردْ منـــــهُ امتثـــــالَ أمـــــرهِ

فـــــانظرْ مثـــــالاً حســـــنًا عجيبَـــــا ... نهايـــــةً رتّبتُـــــهُ ترتيبَـــــا

أعملـــــتُ جَهـــــدي غايـــــةَ الإعمـــــالِ ... إذ هُـــــوَ مـــــنْ شـــــواردِ الأمثـــــالِ

مثّلَـــــهُ مَـــــن أحكـــــمَ العلومـــــا ... وعـــــرَفَ الخصـــــوصَ والعُمومَـــــا

مُستشـــــهدًا بشـــــاهدِ العقـــــولِ ... لينظُـــــرَ الحكمـــــةَ في المنقـــــولِ

فصل

وصانعُ العالمِ لمَّا اخترعَهْ ... بمَنّهِ وطَوْلِه وأبدعَهْ

لم يكُن الخَلقُ عليهِ واجِبَا ... ولا قَضى بخلقِهِ مآرِبَا

وما لَه في خلقِه أغراضُ ... ولا عليهِ لهُم اعتراضُ

إذ هُو لا يسئلُ عمَّا فعلَهْ ... إلاَّ على ما قالَهُ المعتزلَهْ

فصل

للهِ أن يُكلّفَ العبادا ... مَا لا يُطيقونَ متى أرادا

ولو يشاءُ عندنا أهملَهُم ... بأسرِهِم من غيرِ تكليفٍ لهُم

وهكذا للواحِدِ الجبارِ ... إنشاؤُهم في جنَّةٍ أو نارِ

فصل

لربّنا سبحانَهُ تعالى ... أن يُؤلمَ الدَّوابَ والأطفالا

بملكِهِ من غيرِ جُرمٍ سابقِ ... منهُم ومنْ غيرِ ثوابٍ لاحقِ

وأنْ يُثيبَ كُلّ مَنْ عصاهُ ... ويَمنعَ الثوابَ مَنْ أرضاهُ

ويستحيلُ وصفُهُ بالظلمِ ... والجوْرِ إذ هُم ملكُهُ في الحُكمِ

لكنَّه منَّ على مَن عبدَهْ ... تفضُّلاً منهُ بما قد وعدَهْ

ليس بحقّ واجبٍ مَحتومِ ... ولا بفرضٍ لازمٍ مَجزومِ

وإنما ذلكَ فَضلُ جُودِهِ ... يَمنحُهُ مَن شاءَ مِن عبيدِهِ

فكُلٌّ منَ أثابَهُ فإنما ... يُثيبُهُ بفضلِهِ تكرُّمَا

وكـــلُّ مَـــن عاقبَـــه مـــن خلقِـــهِ فإنمـــا يفعـــلُ بعـــضَ حقّـــهِ

فـصـل

لصـــانعِ العـــالمِ أن يقضـــيْ بمـــا شـــاءَ ولا يلزمُـــهُ أن يُنعِمـــا

ولا عليـــهِ أن يُراعـــيْ الأصـــلحا لأحـــدٍ منَّـــا ولا أنْ يمْنحَـــا

إذ ذاكَ لا حـــدَّ لـــهُ فيُحصَـــرا ولا لَـــهُ نهايـــةٌ فتـــذكَرَا

فكـــلُّ مـــا يُقـــالُ هـــذا الأصـــلحُ ففوقَـــهُ مَـــا هـــوَ منـــهُ أرجَـــحُ

فنُوضـــحُ القـــولَ مـــعَ المعتزلـــةْ بجملـــةٍ تكشـــفُ ســـرَّ المســـئلةْ

فأصـــلحُ الأشـــياءِ للعبـــادِ كَفُّهُـــمُ عـــن ســـبُلِ الفســـادِ

وأنْ يكونـــوا حالـــةَ الإنشـــاءِ في جنَّـــةٍ دائمـــةِ البقـــاءِ

ولـــيسَ للمـــوتِ إلـــيهم نهَـــجُ يســـلُكُهُ ولا علـــيهِم حَـــرَجُ

وأن يكـــونَ الخلـــقُ ذا اســـتواءِ في حالـــةِ الـــدَّوامِ والإنشـــاءِ

علـــى أتمّ الصُّـــورِ المستحســـنَةْ فـــاعرفْ ســـبيلَ الحـــقّ والـــزمْ سُـــنَنَهْ

واعلـــمْ بـــأن فـــوقَ مـــا أصَّـــلتُهُ مَراتبًـــا تـــرجَحُ عمـــا قلتُـــهُ

ومـــا نـــرى الخـــالقَ راعـــى الأصـــلحا للخلـــقِ لكـــن جَهلُهُـــم قـــدْ وضَـــحَا

فـصـل

إلهُنـــا ســـبحانه تعـــالى قـــد قـــدَّرَ الأرزاقَ والآجـــالا

فكـــلُّ مـــا ينتفِـــعُ المخلـــوقُ بـــهْ فرزقُـــهُ مـــعَ اخـــتلافِ ســـبَبِهْ

وينطـــــــوي في ذلـــــــكَ الحَـــــــرامُ وهكـــــــذا قـــــــد قالَـــــــهُ الأعـــــــلامُ

فـصـل

وإنَّ مَـــــنْ مـــــاتَ بهـــــدمٍ أو غـــــرَقْ أو ضُـــــرِّمَتْ عليـــــهِ نـــــارٌ فـــــاحترَقْ

فقـــــد قضـــــى مـــــن الحيـــــاة أجلَـــــهْ وجاحِـــــدُ الحـــــقّ ســـــيلقى عملَـــــهْ

فـصـل

ومُـــــدركُ التحســـــينِ والتَّقبـــــيحِ الشـــــرعُ لا العقـــــلُ علـــــى الصَّـــــحيحِ

هـــــذا الـــــذي ارتضـــــاهُ أهـــــلُ الحـــــقّ قاطبـــــةً دُونَ جَميـــــعِ الخلـــــقِ

مـــــن ســـــائرِ الأصـــــنافِ كالمعتزلـــــةْ وغَيرِهِـــــمْ مـــــنَ الرَّعـــــاعِ الجهلَـــــةْ

فـــــإنَّهُم قَـــــد قسَّـــــموا الأفعَـــــالا ثلاثـــــةً أذكُرُهـــــا ارتِجـــــالا

فواحِـــــدٌ مُدرَكُـــــهُ بالعقـــــلِ ضـــــرورةً وواحـــــدٌ بالنقـــــلِ

فالكـــــذبُ المفضـــــي إلى إضـــــرارِ يُعلـــــمُ قُبحُـــــهُ عَـــــن اضـــــطرارِ

وهكـــــذا يُعلـــــمُ حُســـــنُ الصّـــــدقِ المقتضـــــي للنُّصـــــحِ فـــــافهمْ نُطقـــــي

وواحـــــدٌ مُدرَكُـــــهُ بـــــالنَّظَرِ كالكـــــذبِ المُبـــــدي لـــــدَفعِ الضَّـــــررِ

ِوالصـــــدقِ إن أفضَـــــى إلى فسَـــــاد وقَـــــد أتـــــى القـــــولُ علـــــى السَّـــــدادِ

ِوكُـــــلُّ مـــــا يلـــــزَمُ بـــــالتَّحَكُّمِ وهْـــــوَ يُنـــــافي العقـــــلَ كـــــالتيمُّمِ

والغُســـــلِ والصـــــلاةِ والصـــــيامِ والســـــعي والطـــــوافِ والإحـــــرامِ

فإنَّـــــه يُـــــدرَكُ بالسَّـــــماعِ مِـــــن قِبَـــــلِ الشَّـــــارِعِ بالإجمـــــاعِ

واعلـــم بـــأنَّ كـــلَّ مـــا قـــالوهُ ... وأطنبـــوا فيـــهِ وقسَّـــمُوهُ

زَخـــارفٌ حسَّـــنها التَّنميـــقُ ... يُظهِـــرُ أصـــلَ زيفِهـــا التَّحقيـــقُ

إذ جعلـــوا فيـــهِ ضـــروريا ومَـــنْ ... حـــقّ الضَّـــروريّ الوِفـــاقُ فاســـتَبِنْ

كمـــا يُحيـــلُ العقـــلاءُ جهلَـــهُ ... أن يخلُـــقَ الـــرَّبُّ إلهًـــا مثلَـــهُ

ويعلمـــونَ أنَّ كُـــلَّ أحـــدِ ... أقـــلُّ ممـــا فوقَـــهُ مـــنْ عَـــددِ

فـــإذ رأى الخِـــلافَ أهـــلُ الحـــقّ ... وهُـــم علـــى التَّحقيـــق جُـــلُّ الخَلـــق

أُبطِـــلَ قطعًـــا مـــا ادّعـــوا معرفتَـــهْ ... ضَـــرورةً بالعقـــلِ فـــاحفظْ صـــيغتَهْ

وكـــلُّ مـــا تدخلُـــهُ الدَّلالـــةْ ... فنَظَـــريُّ النـــوعِ لا محالَـــةْ

وهـــا هُنـــا يَمتنِـــعُ المنـــاظِرُ ... أن يـــذكُرَ الـــدليلَ وهـــو ظِـــاهرُ

والحســـنُ المقـــولُ فيـــهِ افعَـــلْ كمـــا ... قَـــد حـــدَّهُ مَـــن قـــدرُهُ قَـــد عَظُمـــا

فنُوضِـــحُ الحـــقَّ بفـــرضِ مســـئَلَةْ ... مَتينَـــةِ الإلـــزامِ جِـــدّا مُشـــكِلَةْ

وهـــي علـــى التَّحقيـــقِ أقـــوى الأســـئِلَةْ ... ألا اسمعـــوا مَعاشِـــرَ المعتزلَـــةْ

ألـــيسَ أن الحـــقَّ حقّـــا حكَمَـــا ... بـــأنَّ مَـــن لـــهُ عبيـــدٌ وإمَـــا

ســـلَّطهُم علـــى الفســـادِ فطَغَـــوا ... وانهمكـــوا فيـــهِ وضـــلُّوا ولغَـــوا

وأهلَكَـــوا الأولادَ والأمـــوالا ... وقتلـــوا النّســـاءَ والرّجـــالا

وهـــوَ علـــى رَدعهـــمُ قـــدير ... لـــو شـــاءَ لا يلحقُـــهُ تقصـــيرُ

عُـــدَّ ســـفيهًا حمِقًـــا مُهَـــوَّرَا ... إذ لـــو يشـــاءُ لأزالَ المنكـــرَا

أليسَ هذا حُكمَهُم في الشَّاهِدِ ... فيما يرَوْنَ في الإلهِ الواحِدِ

وإن يقولوا إنَّه قَد عجَزَا ... تلفَّظوا بالكُفر لفظًا مُوجزَا

وإن يقولوا إنَّه جبَّارُ ... ذُو قُوَّةٍ مَتينةٍ قَهَّارُ

التزموا القَولَ بأنَّ الحُكمَا ... بالشَّرْعِ لا غيرَ مَنوطٌ حَتمَا

وهذهِ قاعدةٌ مشهورةْ ... تأتيكَ في أسئلةٍ كثيرةْ

كقولِ من قالَ لنا وصرَّحَا ... إنَّ عليهِ أن يُراعيْ الأصلحا

وهكذا الكلامُ في الأفعالِ ... وخلقِهَا والرزقِ والآجالِ

فصل

وجُملةُ الإيمانِ قولٌ وعمَلْ ... ونيَّةٌ فاعملْ وكُنْ عَلى وَجَلْ

فإنَّه ينقُصُ بالعِصيانِ ... فاخضَعْ إذًا في السرّ والإعلانِ

وَواظب الطَّاعةَ والعِبادَةْ ... تزِدْ بها فاغتنِمْ الزيادةْ

هذا مَقامُ المتقدّمينا ... ذَوي التُّقى الجَمّ المحدّثينا

وهذهِ اللفظةُ في التَّحقيقِ ... مَوضوعةٌ في الأصلِ للتصديقِ

وذاكَ فِعلُ القلبِ كالإرادةْ ... لا يَقبلُ النُّقصانَ والزّيادةْ

هذا الذي مالَ إليهِ الأشعري ... وَهوَ عن التشبيهِ والإفكِ عَري

القول في النبوات

وليسَ يستحيلُ بَعثُ الرُّسُلِ ... في عقلِ كُلّ فَطنٍ مُحصِّلِ

فـــــذا مَقـــــالُ المتشَـــــرّعينَا ... مـــــنْ ســـــائرِ العـــــالَمِ أجمَعينـــــا

وهُـــــم إذًا ذوُو العقـــــول الســـــالِمَةْ ... وقـــــدْ أحـــــالَ ذلـــــكَ البراهِمَـــــةْ

وجعلـــــوا العُمـــــدةَ في التَّصـــــحيحِ ... مســـــئلةَ التَّحســـــينَ والتَّقبـــــيحِ

وقـــــدْ مضَـــــى كلامُهـــــا مُســـــتوعبَا ... جَـــــزْلاً قَويّـــــا بَيّنًـــــا مُهـــــذّبَا

فليـــــتَ شـــــعري مـــــا الـــــذي أحَالـــــهْ ... أم أيـــــنَ وَجـــــهُ هـــــذهِ الدّلالـــــة

فـصـل

في حقيقة المعجزة

وكُـــــلُّ فِعـــــلٍ خَـــــرَقَ العـــــاداتِ ... وبـــــانَ عَـــــن وهْـــــنِ المعارَضـــــاتِ

جَـــــاءَ بـــــهِ مَـــــنْ يـــــدَّعي النُّبـــــوة ... مـــــعَ تحدّيـــــهِ بـــــهِ في القُـــــوَّة

فـــــذلكَ الفعـــــلُ الـــــذي قَـــــد أظهـــــرَهْ ... مُعجـــــزةً تُثبـــــتُ مَـــــا قـــــدْ ذكـــــرَهْ

وسُـــــمّيتْ مُعجـــــزةً لكونِهـــــا ... تُعجـــــزُ كُـــــلّ أحَـــــدٍ عَـــــن فنّهَـــــا

والمعجِـــــزُ اللهُ ولـــــيُّ الحِفـــــظِ ... وإنَّمـــــا تَجـــــوَّزوا في اللفـــــظِ

وهْـــــي إذًا تَنـــــزلُ في المثـــــالِ ... منزلـــــةَ التصـــــديقِ في المقـــــالِ

هـــــذا هـــــو المختـــــارُ في الإرشـــــادِ ... فـــــاسمَعْ مثـــــالَ ذاكَ مِـــــن إيـــــرادي

إذا تصـــــــدَّى ملِـــــــكٌ كـــــــبيرُ ... ذُو سَـــــــطوةٍ ومَجْـــــــدُهُ مشـــــــهورُ

للخلْـــــقِ في مَجلسِـــــهِ فاحتشَـــــدُوا ... واجتمعـــــوا عليـــــهِ حتَّـــــى قعـــــدُوا

وجـــــاءَ مِـــــنْ أقصـــــا الـــــبلادِ النـــــاسُ ... وازدحَـــــمَ القِيَـــــامُ والجُـــــلاَّسُ

فقَـــامَ مِـــنْ أصـــحابِهِ إنســـانُ مُنتصـــبًا شـــاهدَهُ السُّـــلطانُ

صَـــاحَ بـــأعلاَ صـــوتِهِ في النـــادي ألا اسمَعُـــوا مَعاشـــرَ الأشـــهادِ

قـــد جـــاءَكُم أمـــرٌ عظـــيمُ الشَّـــانِ فاســـتمِعوا مـــن قَبلـــهِ بُرهـــاني

أنـــا رســـولُ الملـــكِ الجليـــلِ إلـــيكُم وفِعلُـــهُ دَليلـــي

يـــا أيُّهـــا الســـلطانُ فـــانقض عادتَـــكْ وقُـــمْ إذًا واقعُـــدْ وخـــالِف سُـــنَّتَكْ

ليعلمـــوا حَقيقـــةَ الرســـالةْ بمَـــا يرونَـــهُ مـــنَ الدّلالـــةْ

وأنَّ حقّـــا كـــلُّ مـــا أحكيـــهِ عنـــكَ ومهمَـــا قُلـــتَ ترتضـــيهِ

فامتثَـــلَ الســـلطانُ مـــا قـــدْ ســـألَهْ صـــاحبُهُ فصـــحَّ مـــا قـــدْ نقلَـــهْ

وصـــارَ عنـــدَ الحاضـــرينَ بتَّـــا كأنَّـــهُ قـــالَ لـــهُ صـــدقتَا

فـــانظُرْ إلى عجائـــبِ الأمثـــالِ أتَـــتْ بهـــا خـــواطِرُ الرّجـــالِ

فـصـل

في نـبـوّة نـبـيـنـا مـحـمـد صـلـى الله عليـه وآلـه وسـلـم

وقَـــدْ أتـــى نبيُّنـــا المؤَيَّـــدُ الهـــاشميّ المصـــطفى محمَّـــدُ

بمُعجـــزاتٍ في الأنـــامِ اشـــتهَرَتْ ثُـــمَّ إلى جَميعـــهِ تـــواترتْ

أوَّلُهَـــا القـــرءانُ ذُو الإعجـــازِ بـــالنَّظمِ والأخبـــارِ والإيجـــازِ

وكـــانَ أميّـــا كمَـــا تـــواترَا فقَـــصَّ أخبـــارَ الألى كمَـــا تَـــرى

أنبـــأ عمَّـــا قـــد جـــرى في القِـــدَمِ للأنبيـــاءِ وجَميـــعِ الأمـــمِ

بـــــاينَ نظـــــمَ الشّـــــعرِ والرَّســـــائلِ وســـــائرَ الأســـــجاعِ بالفواصـــــلِ

فـــــالعرَبُ اللـــــذُو ذُوو الإعجـــــابِ والتّيـــــهِ بالأشـــــعارِ والخطـــــابِ

حـــــينَ أصـــــاخُوا سمِعـــــوا كَلامَـــــا لا يعرفـــــونَ مثلَـــــه نِظامَـــــا

فاجتهـــــــدوا في أنْ يُعارِضُـــــــوهُ فـــــذكروا لفظًـــــا ولم يَرضَـــــوهُ

ولـــــوْ سمعـــــتَ مـــــا الـــــذي قـــــالوهُ واحتفلـــــوا لكـــــي يُمـــــاثِلُوهُ

لقُلـــــتَ مـــــا كـــــانوا ذَوي ألبـــــابِ ولا لهُـــــم فصـــــاحَةُ الأعـــــرابِ

فـــــالعقلاءُ ءاثَـــــروا الإيمانَـــــا حـــــينَ رأوْا مـــــا سمِعـــــوا عِيانَـــــا

فـصـل

وأخـــــبرَ النـــــاسَ عـــــن الغيـــــبِ بمَـــــا يكـــــونُ مـــــن بَعـــــدُ علـــــى مَـــــا أُلهِمَـــــا

فكـــــانَ مـــــا أخـــــبرَ عنـــــهُ حَقَّـــــا ووجـــــدوا ذلـــــكَ منـــــهُ صِـــــدقَا

حـــــنَّ إليـــــهِ الجِـــــذعُ وانشـــــقَّ القمَـــــرْ وجـــــاءَ سَـــــحًّا عنـــــدما استســـــقى المَطَـــــرْ

ونبـــــعَ المـــــاءُ علـــــى التَّتَـــــابُعِ في كَفّـــــهِ مِـــــنْ خَلَـــــلِ الأصـــــابعِ

وهكـــــــذا خاطبَـــــــهُ الـــــــذّراعُ لفظًـــــا وعـــــتْ مضـــــمونَهُ الأسمـــــاعُ

فقـــــالَ ذَرنـــــي إنَّـــــني مَســـــموعُ وهْـــــوَ كـــــلامٌ مُعـــــربٌ مَفهـــــومُ

ونطَـــــقَ الـــــوَحشُ لـــــهُ وصـــــرَّحَا تُـــــمَّ الحَصـــــى في كفّـــــه قـــــدْ ســـــبَّحَا

وأشـــــبَعَ الخلـــــقَ الكـــــثير مـــــرَّةْ مـــــنَ اليســـــيرِ ورواهُ جَهـــــرةْ

أُســـــريَ بـــــه في ليلـــــةٍ فعـــــادَا فعـــــرَفَ الأعـــــلامَ والـــــبلادَا

مـــا بـــينَ أرضِ المســـجدِ الحـــرامِ والمســـجدِ الأقصـــى بـــأرضِ الشـــامِ

ولم يكُـــنْ أضـــغاثَ أحـــلامٍ ولا يقولُـــهُ مـــنْ نفسِـــهِ تقـــوُّلا

فكيـــفَ قيـــلَ إنَّـــهُ افـــتراهُ وقـــدْ حكَـــى للنـــاسِ مـــا رءاهُ

فعلِمـــوا صِـــحَّتَهُ إيقانَـــا وقـــدْ رَأوْا مـــا قالـــهُ عِيانَـــا

وللـــنبيّ معجـــزاتٌ جَمَّـــةْ مشـــهورةُ الوجـــودِ عنـــدَ الأمَّـــةْ

النـــاسُ في ذلـــكَ قـــد توسَّـــعُوا فـــاقنعْ وفيمـــا قَـــد حكيـــتُ مقنَـــعُ

فصـل

وبعـــدَ أن قـــد ثبتَـــتْ دَلالَتُـــهْ صـــحَّتْ بمـــا جـــاءَ بـــهِ رســـالتُهْ

ونســـخَتْ شـــرعَ الألى شـــريعتُهْ ووَجَبَـــتْ علـــى الأنـــامِ طاعتُـــهْ

وخـــتمَ اللهُ بـــهِ الرســـالةْ حقّـــا وقـــد شـــرَّفَهُ وءالَـــهْ

فصـل

وكـــلُّ مـــا جـــاءَ عـــن الرســـولِ نقـــلاً تلقَّينـــاهُ بـــالقَبولِ

كـــالخبَرِ الـــواردِ في الأهـــوالِ القـــبرِ والعـــذابِ والســـؤالِ

فيســـألُ الميَـــتَ حقّـــا مُنكَـــرُ وعنـــدَهُ نكـــيرُ فيمـــا يُـــذكَرُ

عَـــن ربّـــهِ جَـــلَّ وعَـــن شـــريعتِهْ مِـــنْ بَعـــدِ عَـــوْدِ رُوحِـــهِ في جُثَّتِـــهْ

وهكـــذا جـــاءَ عَـــن الرســـولِ وكلُّـــهُ يَجـــوزُ في العقـــولِ

لأنَّ مـــن أنشـــأ أصـــلَ العـــالَمِ يُعيـــدُ رُوحًـــا عنـــدَ كُـــلّ عـــالِمِ

فقُـــل إذًا كقـــولِ كُـــلّ حَبْـــرِ ربّ أعِـــذني مـــن عـــذابِ القـــبرِ

إذْ هُـــو حـــقٌّ يَجـــبُ الإيمـــانُ بـــهِ كمـــا قـــدْ قالَـــه الأعيـــانُ

وجاءَنـــا في الخـــبرِ المـــرويّ الثابـــتِ النَّقـــلِ عـــن الـــنبيّ

القـــبرُ روضـــةٌ مـــن الجنـــانِ أو حُفـــرةٌ مـــن حُفَـــرِ الـــنيرانِ

فـصـل

ويجـــبُ الإيمـــانُ بـــالميزانِ لأنَّـــه قـــد جـــاءَ في القـــرءانِ

في كفَّتَيْـــهِ تُـــوزنُ الأعمـــالُ فتظهـــرُ الأقـــوالُ والأفعـــالُ

فينـــدَمُ العاصـــي علـــى مـــا أجرَمـــا ويفـــرَحُ المحســـنُ ممَّـــا قـــدَّمَا

فـصـل

وهكـــذا الصـــراطُ في القـــرءانِ مكَـــرَّرُ اللفـــظِ مـــعَ البيـــانِ

يُمَـــدُّ فيمـــا جـــاءَ في الأخبـــارِ مُصـــحَّحًا علـــى شـــفيرِ النـــارِ

يمُـــرُّ كـــلُّ مـــؤمنٍ بسُـــرعةْ عليـــهِ والويـــلُ لأهـــلِ البدعـــةْ

فـصـل

ويجـــبُ الإيمـــانُ بالحســـابِ والبعـــثِ والوقـــوفِ والعقـــابِ

وكُـــلِّ مـــا جـــاءَ مـــن الوعيـــدِ والوعـــدِ في القـــرءانِ والتهديـــدِ

فـصـل

والنـــارُ والجنَّـــةُ قـــد أُنشـــئتا إذ أذِنَ اللهُ وقـــد أُعِـــدَّتَا

وأنكـــرتْ جماعـــةُ المعتزلـــةْ خلْقَهُمـــا فضَـــلَّ مَـــن قـــدْ جهِلَـــهْ

إذ جـــــــاءَ في ءايِ القـــــــرءانِ خلقُهُمـــــــا فصـــــارَ كالعِيـــــانِ

فـصـل

والحـــــوضُ والمقـــــامُ والشـــــفاعةْ لســـــيّدِ السُّـــــنّةِ والجماعـــــةْ

محمَّـــــدٍ ذي الشـــــرفِ العظـــــيمِ في الحشـــــرِ والميـــــزةِ والتقـــــديمِ

فلـــــيسَ يبقـــــى في الجحـــــيمِ أحـــــدُ شـــــفيعُهُ نبيُّنَـــــا محمَّـــــدُ

ومَـــــن أتـــــى كـــــبيرةً مـــــن أمَّتِـــــهْ فإنَّـــــهُ يـــــدخُلُ في شـــــفاعتِهْ

فـصـل

في رؤيـة الخـالـق جل وعـلا

وقـــــد أتـــــى في الخبَـــــر المنقـــــولِ الثابـــــتِ النقـــــلِ عـــــن الرســـــولِ

رؤيـــــةُ ربّ الخلْـــــقِ في القيامـــــةْ كـــــالقمرِ النـــــائي عـــــن الغَمامـــــةْ

ولم يُـــــرِدْ بضـــــربِهِ المثـــــالا إلا انتفـــــاءَ الشـــــكّ والإجـــــلالا

إذ رؤيـــــةُ الخـــــالقِ لا تُكيّـــــفُ هـــــذا الـــــذي كـــــان عليـــــهِ الســـــلفُ

فمُنكروهـــــا خـــــالفُوا الرســـــولا وعانـــــدوا النقـــــولَ والمعقـــــولا

ولا يَـــــرى الخـــــالقَ إلا مســـــلمُ منـــــزّهٌ لذاتِـــــهِ مُعظّـــــمُ

خـــــالٍ عـــــن البدعـــــةِ والضَّـــــلالةْ لا كالـــــذي ظـــــنَّ أولُـــــو الجهالـــــةْ

فـصـل

وكـــــلُّ مَـــــن مـــــاتَ علـــــى عِصـــــيانِ يَجـــــوزُ أن يُعَـــــمَّ بـــــالغُفرانِ

عَقـــــلاً وفي الحُكـــــمِ سيصـــــلى النـــــارَا ورافِـــــضَ الإســـــلامِ والكفَّـــــارَا

فـصـل

ومَـــن أتـــى كـــبيرةً لا يخـــرُجُ عَـــنْ دينِـــه قـــد ضـــلَّتِ الخـــوارجُ

ممَّـــا سِـــوى الكفـــرِ كـــذا قـــدْ قيَّـــدوا وأحســـنُوا إذ بيَّنـــوا مـــا أورَدُوا

فـصـل

فـي الإمـام الحـقّ بـعد رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم

ثُـــمَّ الإمـــامُ الحـــقُّ مَـــن قـــدْ بايعَـــهْ صـــحْبُ الـــنبيّ وكـــذا مَـــنْ تابعَـــهْ

وقـــد دعَـــوْهُ كلُّهُـــم مِـــرارَا خَليفـــةَ الرســـولُ واســـتطارَا

ولم يكُـــنْ قـــال الـــنبيُّ أصـــلا فُـــلانٌ الخَـــالِفُ بَعـــدي فَصـــلا

لكنَّـــهُ كـــانَ إذا مـــا جُهِـــدَا استخلَفَ الصـــديقَ مِصـــباحَ الهُـــدى

فـصـل

واشـــتهَرَتْ توليـــةُ الصّـــديقِ لعُمـــرَ المخصـــوصِ بـــالتَّحقيقِ

ففـــتحَ الأمصـــارَ في خلافتِـــهْ وأنشـــأَ الـــديوانَ في وِلايتِـــهْ

وخصَّـــهَا لســـتّةٍ مـــن بعـــدِهِ لفضـــلِهِم وحزمِـــهِ وزُهـــدِهِ

فـصـل

فبـــايعَ الخمســـةُ عُثمـــانَ ولمْ يحْـــكِ أمـــينٌ أنَّ عُثمـــانَ ظلَـــمْ

ولم يكُـــنْ ذاكَ الكتـــابُ أملَـــهْ فقاتَـــلَ اللهُ لعينًـــا قتلَـــهْ

وهبْـــكَ أنَّـــه كمـــا تُقُـــوّلا هـــل يجـــبُ القَتـــلُ علـــى مَـــنْ أمْلـــلا

ومَـــن يقُـــلْ إنَّ عليّـــا مُـــتّهَمْ في قَتلـــهِ ضـــلَّ وأخطـــأَ واجـــترَمْ

لأنَّـــــهُ قَـــــد قـــــامَ في نُصـــــرَتِهِ وأنفَـــــذَ الحســـــينَ في نَجدتِـــــهِ

فصـل

ثُـــمَّ علـــيٌّ بعـــدَهُ الإمـــامُ زَوجُ البتُـــولِ الفـــارسُ الهُمـــامُ

بَحـــرُ الحِجـــى وكاسِـــرُ الأصـــنامِ صِـــنْوُ الرســـولِ بطَـــلُ الإســـلامِ

وَلـــيْ فكـــانَ عقـــدُهُ مسَـــتَدَّا لَّـــا غـــدَا بالفضـــلِ مســـتيدَّا

وإنَّمـــا نازعَـــهُ مُعاويـــةْ بشُـــبَهٍ عـــن الصـــوابِ نائيـــةْ

تـــأوَّلا بقـــاتلي عُثمانَـــا أخطـــأ فيـــهِ وادَّعـــى عُـــدوانَا

فصـل

في تقديم الصحابة بعضهم على بعض

رضـي الله عنـهم

وأفضـــلُ الصـــحابةِ الصـــديقُ ثُـــمَّ يليـــهِ عُمـــرُ الفـــاروقُ

ثُمَّـــتَ عثمـــانُ شـــهيدُ الـــدَّارِ ثُـــمَّ علـــيٌّ قاتـــلُ الكفـــارِ

وطلحـــةُ ثـــم الـــزبيرُ بعـــدَهْ وعاشـــرُ الصَّـــحبِ أبـــو عبيـــدةْ

ثُمَّـــتْ مـــنْ بعـــدِ الـــزُّبيرِ ســـعدُ ثـــمَّ ســـعيدٌ وابـــنُ عـــوفِ بعـــدُ

ولـــيسَ ذا التفضـــيلُ عَـــن يَقـــينِ قُلنـــاهُ بَـــل بـــالظنّ والـــتَّخمينِ

واعلـــمْ بـــأنَّ هـــؤلاءِ العشـــرةْ مُبـــايعو الـــنبيّ تحـــتَ الشَّـــجرةْ

وســـائرُ الصـــحابةِ الأبـــرارِ أولـــي النُّهـــى والعلـــمِ والوقـــارِ

نُقِـــرُّ بالفضـــلِ لهُـــم ونشـــهَدُ إذ قـــالَ ذا نبيُّنـــا محمَّـــدُ

وهكـــــذا نـــــثني علـــــى نســـــائِهِ إذ ســـــبُّهُم يُخـــــرِجُ عـــــن وَلائِـــــهِ

وقـــــد أتـــــى في سُـــــورةِ الأحـــــزابِ فضْـــــلُهُمُ في أبـــــينِ الخِطـــــابِ

فـصـل

ونـــــذكُرُ الآنَ مـــــنَ الإمامَـــــةْ فصْـــــلا ونُنهيهـــــا علـــــى اســـــتقامةْ

جَريًـــــا علـــــى عـــــادةِ مَـــــن تقـــــدَّمَا إن وفَّـــــقَ اللهُ لـــــهُ وأنعَمَـــــا

فـصـل

العـــــادِلُ السَّـــــويُّ في الصـــــفاتِ السَّـــــالِمُ الـــــذاتِ مـــــنَ الآفـــــاتِ

القُرَشـــــيُّ المســـــلمُ الأريـــــبُ البـــــالغُ المجتهـــــدُ اللبيـــــبُ

هُـــــوَ الإمـــــامُ الواجـــــبُ المُبايعَـــــةْ والحـــــقُّ في التقليـــــدِ مَـــــعْ مَـــــنْ بايعَـــــهْ

فهـــــذِهِ شـــــرائطُ الإمامـــــةْ ســـــبعٌ تـــــدبَّرْها تكُـــــنْ علاَّمَـــــةْ

وعنـــــدَ بعـــــضِ مَـــــن إليـــــهِ الأمـــــرُ يكفـــــي كـــــذا نـــــصَّ عليـــــهِ الحَـــــبرُ

أبـــــو المعـــــالي بطـــــلُ التَّحقيـــــقِ مُستشـــــهدًا ببَيْعَـــــةِ الصّـــــديقِ

هـــــذا إذا اســـــتقلَّ في زمانـــــهِ وامتـــــازَ بالشـــــروطِ عـــــن أقرانِـــــهِ

أمَّـــــا إذا لم يســـــتقلَّ وحـــــدَهُ فهْـــــيَ لمـــــنْ يحُـــــلُّ مـــــنهُم عقـــــدَهُ

فـــــإنْ ولِـــــيْ وجـــــارَ في رَعِيّتِـــــهْ وخيـــــفَ بعـــــدَ عَزلِـــــهِ مِـــــنْ فتنتِـــــهْ

امتنـــــعَ العـــــزلُ لخـــــوفِ الضَّـــــرَرِ إذ عزلُـــــهُ يُـــــوقعُهُم في غَـــــرَرِ

ثـــــمَّ اللبيـــــبُ لا يهُـــــدُّ مصـــــرَا مُســـــتوطِنًا فيـــــهِ ليَـــــبني قَصـــــرَا

وليســـــألِ النـــــاسُ الإلـــــهَ سِـــــرًّا اصـــــلاحَهُ أو أن يُـــــزالَ قَهـــــرَا

وحُكـــــمُ مَـــــن قـــــد عُقـــــدَتْ بيعتُـــــهُ ولـــــيسَ أهـــــلا كَالـــــذي قدَّمتُـــــهُ